والحق أن الجرجاني قد بذل جهداً ضخماً في استكمال عناصر نظرية لُغوية لإثبات الإعجاز القرآني ، ثم لتذوُّق النص الأدبيِّ عموماً ، وربما كانت مقولتُهُ بتركيز الجمال في مستوى المعنى العقلي هي أخطر ما دخل في باب النقد العربيِّ القديم . ولا نريد الخوضَ في الأسباب الدينية والمذْهَبية التي دفعت عبد القاهر إلى هذا الطَّريق ، وإنما يعنينا بالدَّرجة الأولى أن نتوقَّف عند مفهوم الرَّجُل لمستَوَيات دراسة النص الأدبي ، حيث نعتقد أنه قد توقف أمام إشكالية تبدو في ظاهرها عسيرةَ الحلِّ ؛ إذ كان أمامه مستويان عليه أن يتحرَّك بينهما ، وأن يوفِّقَ بين متناقضاتهما ، فهو بين كلام لفظي منطوق يمكن ملاحظته ، ونشاط عقلي تصعب معه هذه الملاحظة ، وقد آثر الجرجاني – حلا لهذا الإشكال – أن يتجه إلى العَلاقات القائمة بين مُفْرَدات الكلام الملفوظ ، وهي علاقات تئول في النهاية إلى معاني النحو وإمكاناته . والنحو – عنده – هو النحو التقعيدي بما يحويه من إمكانات تركيبية ، وهذه الإمكانات هي التي تعطي للصياغة ملامحها الأساسية في الشعر أو في النثر ، كما أنها وسيلة تخلصها من الفوضى والعفوية والتلقائية ، وتحقيق ذلك يتم بالاعتماد على (النظم) . ولا شك في أن الأشكال المتنوعة للعَلاقات النَّحْوِيَّة قد استأثرت منه باهتمامات مكثَّفة وإحصاءات متنوِّعة ربطت بينها وبين السياق التعبيري فتعطيه كما تأخذ منه .

ولكن يبدو أن سوء الفهم بعد الجرجاني قد جر مباحثه إلى عملية تحويل للنظرية إلى الدرس البلاغي الخالص ، حيث أصبحت مباحث (الدلائل) ركيزة عِلْم المعاني ، ومباحث (الأسرار) ركيزة عِلْم البيان ، واقتضت طبيعة القسمة العقلية وجود عِلْم ثالث يكمل ويزيّن هو (البديع) .